

THE 400th. BIRTHDAY OF CERVANTES

HENRY BAERLEIN

ميجويل سرفانتز

ذكري مرور أربعمائة سنة على مولده

[الكاتب سرفانتز من أعظم كتاب العالم بكتابه «دون كيخوت». وقد أردنا أن يعرفه العالم العربي ويساهم في ذكره بنشر هذا المقال .]

في ذات مساء في القرن السابع عشر ، كان الملك فيليب الثالث الأسباني يطل من نافذة قصره في مدريد ، فرأى منظرًا عجباً : رأى طالباً يسير جيئة وذهاباً إلى جانب النهر ، وهو يقرأ في كتاب ، وبين حين وآخر يضرب رأسه بيده ، وينطلق في قهقهة عالية . فقال الملك : — هذا الرجل إما أنه مجنون وإما أنه يقرأ «دون كيخوت» .

إن شهرة مؤلف ذلك الكتاب كانت متأخرة ، ولكن حياته كانت مليئة بالمفاجآت ؛ وتاريخ ميلاده غير معروف تماماً ، غير أنه عمد في كنيسة قلعة هنارس في ٩ أكتوبر سنة ١٥٤٧ ؛ ولذلك يرجح أنه ولد في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر ، حيث يقع عيد القديس ميخائيل ، وقد سمي ميخائيل أو ميجويل بالأسبانية تبركاً به . وكان أبوه ييطاراً . وفي سنة ١٥٧٠ انضم إلى الجيش الشهير الذي ألفه دون جوان النمساوي ، وفي السنة التالية ، كان على ظهر السفينة مركويزا في موقعة ليبانتو ، وأصيب بالحمى ، ولكنه أصر على الاشتراك في الموقعة ؛ فأصيب بثلاث قذائف اثنتان في الصدر ، والثالثة في اليد اليسرى ، فشلت للأبد ، ومع ذلك لم يزد في الإشارة إلى هذا الحادث على قوله : « نعمت اليد اليمنى » .

وفي سنتي ١٥٧٢ ، ١٥٧٣ اشترك في وقائع حربية أخرى ، فكان عند

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة «الكاتب المصري» .

احتلال تونس وقام بأعمال الحراسة في نابولي وبالرمو ، فلما أتم عمله وعاد قاصداً بلاده في سبتمبر سنة ١٥٧٥ ، حمل معه رسالة من دون جوان إلى فيليب الثاني ، يلتمس فيها القائد ترقية حامل الرسالة ، فكانت هذه الرسالة سبباً في مصابه ؛ إذ أسر قرصان البربر السفينة التي كان عليها في ميساه مارسيليا ، وبيع في سوق العبيد ، ووجدت الرسالة معه ، فظن أنه رجل كبير الشأن . ولما ذهب قسان إلى الجزائر لاستخلاص الأسرى ، وقد اشتراه رجل يوناني اعتنق الاسلام اسمه ذالى مالى ، عرضا على سيده ثلاثمائة بيزيتا فدية له ؛ فأبى السيد قبول هذا المبلغ ، مع أن أخاه رودريجو عاد مع القسين . ولقد حاول ميجويل الفرار عدة مرات ، وفي إحدى هذه المرات هددته حسن باشا الوالى بالقتل ، ولكنه رأى من مظهر البطولة فيه ما جعله يعدل عن هذا الحكم . وفي سنة ١٥٧٨ حكم عليه بالجلد ألفى جلدة ؛ إذ كتب إلى حاكم وهران يلتمس مساعدته في القرار إلى أسبانيا ، على أن الحكم لم ينفذ . وأعيد أخيراً إلى بلاده في سنة ١٥٨٠ ، بعد أن استطاع أهله أن يجمعوا فيما بينهم فدية كبيرة . وقد نزل إلى أرض بلاده في بلنسية بصحبة بعض الجنود العائدين . وساروا في موكب على قرع الطبول ونفخ المزامير ، وكانوا عارى الرؤوس في أسمال بالية ، على حين كان المنادون يبيعون للناس أوراقاً فيها وصف لقصتهم ؛ وقد قام القسوس بطبعها وبيعها لاعانة هؤلاء الجنود . ويظهر أنه لم يصب سرفانتز شئ من هذه الاعانة ؛ فقد ظل مقياً في بلنسية لا يستطيع الرحيل ، وكتب إلى أهله يطلب مالا ليتابع رحلته ، ويشكرهم شكراً جزيلاً على التضحيات التي تحملوها من أجله ؛ واقترح أن يلجأوا لأحد الكتاب العموميين كي يضع التماساً يوضح ما أبلاه في الحرب ، وما وقع له من أسر كي يمنح مكافأة على ذلك . ولكن فيليب الثاني كان في شغل عنه ببلاد البرتغال التي تولى الكردينال هنرى عرشها لبضعة أشهر ، وكان في السابعة والسبعين من عمره ومع ذلك التمس من البابا سستو الخامس أن يسمح له بالزواج أملاً في أن يخلف وريثاً . ولكن البابا رفض أن يمنحه حق الزواج ؛ إذ كان على علاقة وثيقة بالبلاط الأسباني . . .

وعاد سرفانتز أخيراً إلى أهله ليرى أن آماله أصيبت بخيبة كخيبة الملك الكهل .

كان مقدراً عليه أن يعيش عيشة صعبة ، وكان يؤنس في نفسه البراعة في الكتابة ، فتعاقد على أن يكتب مسرحية أو مسرحيتين في زمن لم تكن المسرحيات فيه تعود بفائدة مالية . ومع ذلك أقدم على الزواج . ولم يكن مهر زوجته غير حديقة صغيرة وخمس أشجار من العنب وبعض الأثاث المنزلى وأربع خلايا نحل وعشرين دجاجة وديك وبوتقة . ولقد تبين له أخيراً أنه لا يستطيع العيش بالأدب ، فذهب إلى إشبيلية حيث عمل في جمع المؤن للأسطول العظيم المسلح « الأرمادا » . ولقد التمس أن يعين في مركز بالمستعمرات كجواتيالا أو في إدارة الحسابات العامة لمستعمرة غرناطة الجديدة . ومن حسن الحظ أن رفض طلبه ، واضطر للاستمرار في حياة البؤس بأسبانيا يساعد في تموين السفن .

لم يكن سرفانتز رجلاً يحسن الأعمال ، فسبب له هذا الأمر متاعب كبيرة ؛ فلقد أودع أحد التجار مالا ؛ ووعد التاجر بتسليمه إلى الخزانة الحكومية بمدريد ، ولكنه لم يفعل بل هرب بالمال ، وسجن سرفانتز لهذا السبب . وكان عندئذ في أشد حالات البؤس ، ولقد عرف السجن في جهات أخرى مثل أرجاماسيلا ، وهي مدينة حقيرة في لامانكا إلى الجنوب من مدريد ، وقد أرسل إليها رسولا من رئيس دير لجمع متأخرات الضرائب في تلك الجهة ، فهجم عليه جماعة من الأشرار واغتصبوا المال ، فوضع سرفانتز على أثر ذلك في السجن ؛ وهو عمل ظالم . كان ذلك على الراجح بأمر دون رودريجو باتشيكو ، عمدة أرجاماسيلا ويطلبها الوحيد . وقد انتقم سرفانتز منه فخلده واتخذة علما باسم دون كيخوت ورفعه فوق جواده روزيناتي .

ولما كنت من المعجبين بسرفانتز فقد رغبت في الحج إلى أرجاماسيلا وهي تبعد عن طريق السكة الحديدية ، والطريق إليها وعز غير مهاد ، وقد وضع بعضهم معالم للطريق من الحجر المنحوت قبل سنوات ، وهي في شكل أهرام صغيرة ، وكان منظرها حسناً ولكن الحشائش نمت حولها حتى غطتها ، ويروى أزورين الكاتب الأسباني أن جيران أرجاماسيلا يقولون إنها قرية موبوءة ؛ إذ أن مياه النهر تغمر أرضها وتؤلف بركاً راكدة تتصاعد منها الأبخرة التي تؤثر في السكان . ولقد كان في تلك القرية سنة ١٥٧٥ ستائة بيت ، فبلغ عدد بيوتها في سنة ١٩٠٥ سبعمائة واحد عشر بيتاً فقط . وترى

المدينة دائماً نائمة يجم عليها الهدوء ، والأبواب مغلقة عادة ، والشمس تضرب حوائط دورها البيضاء ، والساحة مهجورة لا يقطعها إلا كلب هزيل بين حين وآخر .

• ويجم الظلام عادة على الكنيسة القابضة ، وقد غطيت النافذة التي ينفذ منها الضوء ليضئ صورة شهيرة بغطاء أسمر . وقصدت راعى الكنيسة وهو شخص عجيب في شبه غيبوبة ، وطلبت منه أن أرى صورة دون كيخوت ، فقال إنى لا أعرف شيئاً عن ذلك ، وأنا مثقل بالأعمال مع تقديى فى السن ، ولكن هنالك الصورة التى تزار!

وكانت هنالك عجوز تمسك غطاء النافذة ، فقال الراعى : « سوف تساعدك فهى تفهم . » ثم خرج وتبعته المرأة ، ولكنها عادت بعد دقائق ومعها علبة كبريت وتسلفت المذبح وأضاءت إحدى الشموع الكبرى ، وأمسكت بها بأصابع مرتعشة ، وصاحت : هذا هو الوجه الذى تعرفه ، وجه « السيدة العذراء » .

ورأيت دون رودريجو باشيكو راكعاً فى الركن اليسارى من الصورة ، ووجهه عصبى ، وعيناه قفلتان ، وعظام وجنتيه بارزة ، ذو لحية مديبة ، وله منظر الفرسان بما يبدو عليه من ألم مع تكبر ، وكأنه خارج من إحدى صور المصور الجريكو .

قالت العجوز وهى تقترب بشمعتها الخطرة : « هذا باشيكو ، ومن وجهه ترى ياسنيور أنه كان مجنوناً . رباه ! ليس هنالك مايعمله الانسان فى جنونه غير الصلاة ! »

وسألتها الطريق إلى مكان السجن ، فصاحتنى واخرقنا عدة شوارع مرصوفة بالحجر الصلد غير المتساوى ، وكانت الدور حقيرة جدا وقد طليت بالطلاء الأبيض . ويقع السجن فى ركن من أركان أحد هذه الشوارع فى دار عادية ، وفى فناء الدار باب قديم ظل قائماً مئات السنين يسد المدخل إلى سجن سرفانتز ، وبعد أن ينزل المرء درجتين أو ثلاثا يجد غرفة مظلمة عارية مستطيلة وأرضها تراب ، هنا كان يرقد سرفانتز ، وعلى الضوء الذى ينفذ إليه من تحت هذا الباب ، كتب الفصول الأولى من كتابه .

وكان وهو يكتب كتابه هذا يفكر بلا ريب فى الماضى : فى ذلك اليوم

من سنة ١٥٩٥ حين نال الجائزة الأولى في مسابقة الشعر في سرقسطة ، وقد أقيمت في عيد القديس هيا كنت ؛ وكانت الجائزة عبارة عن ثلاث ملاعق من الفضة . وقبل ذلك بثلاث سنوات اتفق مع رجل اسمه روزاريو على أن يكتب ست مسرحيات نظير مبلغ . ٥ دوقية ، على ألا يدفع روزاريو أى قسط من المبلغ قبل أن يبين له أن هذه المسرحيات هي خير ما أخرج في أسبانيا ! ولم يسفر هذا الاتفاق عن شيء . ولا بد أنه فكر في أيام الأسر في الجزائر وكيف اشترك في ثورة أثارها الأسرى الأسبانيون . . . ألم يكن مثله مثل غيره من الغزاة الأسبانيين أمثال كورتيز وبيزارو ؛ أو مثل القديس لويولا ذلك الجندي المغمور الذي تمكن بقليل من الرجال أن يفتح العالم روحيا !

أما قصة « دون كيخوت » فقد ظلت بعض الوقت يتناقلها الكتاب وهي مخطوطة ، ورآها على هذه الصورة لوي دي يجا الكاتب الخصب الذي ظن وقتا ما أن ما بها من نقد موجه إليه . وهو أول من أشار إلى « دون كيخوت » في كتبه إذ قال : « ليس بين الشعراء من بلغ في سوء القصد مبلغ سرفانتز وفي الجنون مبلغه ؛ إذ نوه بدون كيخوت . »

وقد نشر المؤلف كتابه العظيم لأول مرة في سنة ١٦٠٥ ولكنه وصفه في المقدمة بقوله : « ليس فيه من الزايا إلا ما يمكن أن ينشأ في السجن ! » ورسم المؤلف لنفسه صورة إذ يقول عن نفسه : « جسده ليس بالنحيل ولا بالمتلئ ، وهو لا بالطويل ولا بالقصير ، ينحني قليلا عند الكنفين ، ويسير على قدميه في غير خفة . شارباه طويلان وقمه صغير ، ولم يبق له إلا أسنان قليلة في حالة سيئة ولا تناسب فيها . »

وجد « دون كيخوت » في وقت قصير إقبالا منعدم النظر ، ولكن بالرغم من شهرة الكتاب ، كان سرفانتز بعد خمسة شهور من نشره في فاقة شديدة حتى اضطر إلى اقتراض أربعائة وخمسين ريالا من ناشره .

ولكى نعرف من هو فارس لامتناكب أن تكون لدينا صورة كاملة عنه ، ونتخيله منكبا على قراءة كتب البطولة ، ونسمعه يتكلم إلى الأبطال والسحرة ، ونراه يسبح فيما وراء العقل في عالم من الخيال والمجد ؛ فهو يمتطي جواده العتيق ، وعليه درعه التي علاها الصدا ، فيقطع الجبال والأودية

باحثاً عن المغامرات الجديرة بسيفه . ونرى كل شىء يتغير أمام خياله الخصب ؛ فالسيدات اللاتي ينقذهن من سحر السحرة إن هن إلا نساء عاديّات في طريقهن إلى أعمالهن فيدخل الرعب إلى قلوبهن . والمردة الذين يهجم عليهم في شجاعة ليسوا إلا طواحين - والطواحين في لامنكا صغيرة الحجم جدا - وهو يقول لتابعه : « إلزم الهدوء يا صديقي سانشو ؛ فان أمور الحرب أكثر من أى شىء آخر عرضة للتغيرات المستمرة » . وفضلا عن ذلك أظن بل أعتقد أن الحكيم فريسنو أحال هؤلاء المردة طواحين عامداً لكي يحرمنى مجد التغلب عليهم . ودون كيوخوت شجاع ليس له غرض وهو إنما يحارب من أجل الفضيلة . وإذا كان ينبغي أن يقيم ملكاً فذلك لكي يهبه لتابعه الأمين .

قال مونتسكيو : « إن السيد يحافظ على ممتلكاته ، ولكنه لا يحافظ مطلقاً على حياته . » والصفة الكبرى والأولى في دون كيوخوت هي شجاعته التي لاشك فيها . ولقد اشتهر السادة الأسبانيون في القرن السادس عشر بشجاعتهم حتى نوه بها عدوهم اللدود سير والتر رالى . فهو يقول في كلامه عن المستكشفين الذين كانوا يبحثون عن أرض الذهب : « لقد مرت عليهم السنوات الطويلة وهم يبحثون في منطقة ضيقة . ولقد أنفق بعضهم مجهوده وثروته ثم حياته في البحث عن أرض الذهب دون أن يصل إلى نتيجة ، ولكنهم كانوا لا يعرفون اليأس . » وكان في دون كيوخوت عنصر آخر خير من الشجاعة ، هو شجاعة الرجل المزود بالايان الروحي حين يحيط به الخطر أو تلم به الحيرة .

وتتجمع في دون كيوخوت كل أنواع الجنون التي وصفها شكسبير - جنون المعتوه والمحب والشاعر . ولقد قال يونانومو الكاتب الأسباني : « لقد فقد عقله كي يكون لنا مثالا دائماً للسخاء الروحاني ، ولقد قدم لشعبه أكبر تضحية وهي عقله ، فصار خياله مليئاً بمضحكات جميلة . وأعتقد أنه الصدق ما كان جميلاً فقط » . وقد توج نفسه بقوة ساعده إمبراطوراً على طرايزون على الأقل ، فشكا سانشو قائلاً : « إلى أية حالة سيئة بلغ عقلك يا سيدى ! » وكان يظهر له جنون سيده في تركه المال سعياً وراء المجد . فالرجال من أمثال سانشو يعتبرون المعتوه عاقلاً إذا كان عقله يحول بينه وبين الغنى !

لقد صب سرفانتز عصارة نفسه في بطل قصته في سبيل من العطف والفكاهة

فصار رمزاً للإنسانية المليئة بالخيال . ومستر بكويك الذى خلقه الكاتب ديكنز هو صورة من هذا النوع ؛ فهو نوع من دون كيخوت إلا أن به تعلقاً بشراب اللبن وجعة الرجاجات . ولقد احتذى ديكنز فى العلاقة بين هذا السيد البسيط الطيب القلب وبين سام ويلر الرجل اليقظ النبيه ما كان من علاقة بين دون كيخوت وتابعه . فبين السيد وتابعه تجد العلاقة السهلة نفسها ، مع تلك النوبات التى يثبت فيها السيد وجوده . وتجد كذلك الكاتب ثيكرى يشير إلى ما وجده فى دون كيخوت من متعة فى رسالة كتبها وهو يستعد للكتابة عن الكولونيل نيوكم ، وهو دون كيخوت آخر .

قال سلفادور دى مدريداجا : « إن دون كيخوت عظيم وهو مسلح من قمة الرأس إلى القدم . ولقد نشأ من نبات أفكار سرفانتز ، وزادت من قدره التجارب والمعامرات بمرور ثلاثمائة عام ، وهو يسير ممتطياً جواده فوق ذلك الميدان المترامى من النفس البشرية » .

وقال سرفانتز فى مقدمة كتابه الخالد : « إننى فى الظاهر والد دون كيخوت ولكنى فى الحقيقة زوج أمه » فهو بالغريزة ، التى هى تاج المواهب للعبقريّة الخالقة ، عرف أن دون كيخوت هو ابن الطبيعة لا ابنه هو ؛ وتكهن أنه بمرور العصور سيبلغ عظمة أكبر مما قدرها له زوج أمه . ولقد طال الجدل العقيم فى هذه المسألة ، وهى هل كان سرفانتز يريد أن يمنح أشخاص روايته قيا رمزية ، ولو أنه أراد أن يرمز لمعنويات لأخفق فى إخراج عمل فنى ؛ ولكنه لم يهتم إلا بخلق شخصيات ، وهذا هو السبب فى أنه أبرز للعالم رموزاً دائمة . فكما أن الحجر يلقى على وجه الماء فيحدث دوائر تزداد اتساعاً ، مع أن سقوطه لم ينشأ إلا عن اتباع قوانين الجاذبية ، كذلك المؤلف الذى يستطيع لمس بحر الروح يحدث فيها دوائر أكبر من أن يدركها البصر . فدون كيخوت وسانشو ودون جوان وهاملت وفاوست هم الخمسة العطاء الذين خلقهم خيال الانسان ، وفى كل جيل كان يحاك حول أسمائهم نسيج جديد من الأساطير والآراء والتفسير والرموز . وهذه مزية المخلوقات الفنية الحية التى تفرض شخصيتها بمجرد حيويتها على عقول الناس .

لقد ذكر الأستاذ هربرت جريسون ، وهو يكتب فى سنة ١٩٢١ بعد الحرب العالمية الأولى ، أن الكتب التى كانت تجد إقبالا من القراء أثناء

النضال هي الكتب ذات الموضوع الانساني الخالص لا الفلسفية ولا الدينية ، لا العاطفية ولا المجردة من العاطفة ، بل الكتب الانسانية المزوجة بشئ من السخرية البسيطة ، وفيها حرارة الاتصال العاطفي لا العطف . وكان كتاب «دون كيخوت» في طليعة هذه الكتب ؛ ففيه دليل على ما تقترفه الأقدار أحياناً ، وفيه ذلك المزيج بين التسلية وحب الانسانية واحترامها ، مما هو خليق بتلك الفترة التي شهدت تضحيات وآلام هائلة . وأضاف الأستاذ جريسون قائلاً : إن قصة دون كيخوت تخفف النقد اللاذع للطبيعة الانسانية بأن تصب عليه نهراً من الفكاهة المستمرة العاطفة . فبطلا القصة وإن كانا مضحكين فهما محبوبان وقريبان إلى القلوب . ومن عادتنا عندما نتكلم عن سرفانتز أن ننسى مؤلفاته الأخرى . ومع ذلك فقد وصف جون ماب حين نقل «القصص المثالية» إلى اللغة الانجليزية هذه القصص فقال : «إنها تحتوى على أنواع من المتعة» . ومع ذلك يجب أن نعترف بأن المتعة مضاعفة لدى قراء «دون كيخوت» . كان سرفانتز يكتب على مهل . ولقد وعد وعداً غامضاً بتكملة قصة «دون كيخوت» كما نشرها أولاً . ولكن هذه التكملة لم تكن لتظهر لولا أن أحد الناس جرؤ على نشر تكملة مزيفة لها . فدفع هذا الأمر سرفانتز إلى الكتابة بالرغم منه ؛ إذ كان وقتئذ في صحة سيئة ، لاسبب آلام جراحه وحياة الفاقة فحسب ، بل كذلك بسبب إصابته بنوبة من ضغط الدم شديدة ، وعلى ذلك أخرج للعالم الجزء الثاني العظيم من هذه القصة ، حيث نجد الفكاهة أدق وأعمق والأسلوب قد زاد حسناً .

فالفارس الذي كان ضحية في الجزء الأول للاعتداء وهراوات الخصوم في مواقف لا عداد لها ، نراه طوال الجزء الثاني لا يتعرض لما يمس كرامته ؛ في حين أن سانشو يفقد شيئاً من مكر الفلاحين ، ولكنه يكسب كثيراً في هزله وذكائه ومسلكه . ولقد زاد حب سرفانتز لبطله ، وهو يكتب بتلك الثقة التي يجدها الكاتب الشهير حين يعمل للمحافظة على شهرته .

ولكنه ، على عكس شكسبير ، لم يبلغه الرخاء في سنواته الأخيرة من حياته . ويروى دى توريزو الذى رخص بنشر الجزء الثاني أنه عندما زار فرنسا في سنة ١٦١٥ في صحبة رئيس الأساقفة ، أن الكثيرين من الفرنسيين كانوا يريدون أن يقفوا على دقائق حياة سرفانتز ، فأخبرهم بأنه في كهولته ، وقد كان

جنديا ، وهو من أسرة طيبة ، ولكنه فقير . فقال له أحدهم : « لماذا لا تساعد الخزانة العامة مثل هذا الرجل ؟ » فاعترض آخر قائلا : « إذا كان الفقر يرغم سرفانتز على الكتابة فأرجو ألا يعرف الرخاء مطلقاً لأن فقره يغني العالم » . صار سرفانتز بعد كتابته « لدون كيخوت » من عطاء الكتاب في كل العصور : لقد قيل إن الأطفال يقبلون أوراق كتابه ، والشبان يقرءونه والرجال يفهمونه ، والشيخوخة تمتدحونه — ويقرأه القراء بعدد كبير من اللغات — وقد نقل إلى اللغة الانجليزية إحدى عشرة مرة . ورأيت في مكتبة خاصة بأفيليا مائة وخمسين طبعة بالأسبانية ، منها طبعة فاخرة طبعت لذكرى مرور ثلاثمائة سنة على ما حدث في أرجاماسيللا وفي الغرفة نفسها التي سجن فيها وكتب الفصول الأولى من الكتاب .

سأل لويس الرابع عشر أحد رجال بلاطه : هل يعرف اللغة الأسبانية ؟ فأجاب أنه لا يعرفها ، ولكنه يعتقد أن يستطيع فهمها والتحدث بها في مدة قصيرة جدا . وقد خيل إليه أن الملك يريد تعيينه سفيراً له في مدريد فأكب على دراسة هذه اللغة بهمة ، فلم تمض بضعة أشهر حتى استطاع أن ينيئ الملك بنجاحه . فصاح لويس : « إنك لرجل سعيد إذ تستطيع الآن أن تقرأ كتاب « دون كيخوت » بلغته وتندوق سحره وجماله ! . . . »

كان عقل سرفانتز أكثر نفوذاً من عقل أي كاتب آخر إلى أعماق الشعب الأسباني ، وكان يعرف دخيلة النفس الأسبانية . ففي كتابه الخالد يرسم بوضوح الفرق البين بين العدالة الأسبانية وبين العدالة اليومية التي تتمثل في القوانين والمحاكم : يرسم الأولى في دون كيخوت ، ويرسم الثانية في سانشو بانزا . فالأحكام التي تأتي في سياق الكتاب ونراها معتدلة مترنة حكيمة هي التي تصدر عن سانشو بانزا عندما كان حاكماً لجزيرة ، أما أحكام دون كيخوت فتقام على العدالة الأولية ؛ فهو في حماسته يميل أحياناً إلى جانب وأحياناً إلى الجانب الآخر . وهو يقدم على مغامراته للاحتفاظ بالمثل العليا للعدالة في العالم ، فعند ما يعثر على أولئك العبيد الذين يشغلون في السفن ويتحقق لديهم أنهم مجرمون يعمل لاطلاق سراحهم !

كان سرفانتز يرى الأسبانيين على حقيقتهم ؛ فهم يضعون لأنفسهم قيمة خاصة ، فلا يرون أنفسهم . وهو يرسم بلاداً أسبانية متعلقة بمثلها العليا التي

لم يبق لها مجال ؛ ولذلك فهي في الطربى المؤكد للخراب في سبيل خلاص تلك
المثل .

ومن المحتمل جدا أن شكسبير ، عندما اتخذ سترااتفورد مقاماً له في آخر
أيامه وعاش فيها في رخاء ، قد قرأ ترجمة توماس شلتون لكتاب « التاريخ
المتع للفرس الذكى دون كيخوت » الذى ظهر في سنة ١٦١٢ وقد أهديت
هذه الترجمة للورد هيوارد دى والدين الذى صار ايرل أوف سفولك ، وكان
يشمل شلتون بعطفه . وكان للادى سفولك راتب سنوى قدره ألف جنيهه
تتسلمه من النفقات السرية لملك أسبانيا . وقد يكون شلتون شريكاً لها ، وهو
لمعرفته اللغة الأسبانية ذوفائدة في هذا الباب . ولكن يجب أن نعتفر الكثير
لهذا الرجل الذى نقل هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية نقلاً ممتعاً مما جعله
من عيون الأدب الانجلىزى .

وكان يوم ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ هو اليوم الذى مات فيه شكسبير
الشاعر الانجلىزى العظيم ، ومن المصادفات الغريبة أنه كان اليوم الذى مات
فيه سرفانتز كاتب أسبانيا العظيم ، وانتهت حياته العاصفة .

ذكرنا في سياق هذا المقال بعض آراء الكتاب الحديثين في سرفانتز وفي
مؤلفاته . ولنعرض الآن في تفصيل لقيمة هذا الكاتب في الفكر الحديث ،
وكيف ينظر إليه النقاد الحديث . لقد تعرض الناقد الفرنسى مارسيل بتايون
في كتابه « أرازم وأسبانيا » لسرفانتز وأبدى ملاحظات قيمة ، وهذا الناقد
الفرنسى هو في رأى الأستاذ ترند ، من أساتذة جامعة كامبردج ، « أكبر
العلماء في الأدب الأسبانى ممن هم على قيد الحياة » . فهو يرى أن بعض النافدين
أنفقوا وقتهم سدى إذ أرادوا أن يثبتوا أن سرفانتز هو طليعة أحرار الفكر
الحديثين ، في حين أن مؤلفاته التى ألفت عند طغيان الموجة المضادة للإصلاح
الدينى تتصل بالأدب الجدى لعصر النهضة ، وما كان لأرازم من تأثير خفى
في هذا الأدب ، وهو ذلك التأثير الحر الحاد الذكى . ورسم أمريكو كاسترو
في كتابه « تفكير سرفانتز » صورة تجعله قريباً من الذين يغلبون العقل على
الدين ، ولكنه كان عميقاً في دراسته لسرفانتز حتى إنه لاخطر ، على قول بتايون ،
من اتخاذ دليلاً وإن اختلف معه الرء في مواضع قليلة . ولقد ظل سرفانتز حتى

نهاية حياته مخلصاً لآراء الشباب وللتفكير الذي ورثه عصر فيليب الثاني من عصر شارل الخامس . ومن الراجح جدا أن سرفانتز كان من تلاميذ اليسوعيين في أشبيلية بين سنتي ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ . ولقيت بذور الأدب التي زرعوها أرضاً خصبة . ويقول بتايون إن أسلوبه في «دون كيخوت» هو مزيج ذو طابع شخصي قوى ، من رقة بوكاتشيو المزدهرة والترفع المليء بالسخرية الذي نجده في أريوستو والايجاز القوى الذي نجده في خير تقاليد المؤلفين الأسبانيين . فهو يحب تقطيع الكلام المطول ، ونراه مع ذلك ينقل هذه العادة لدون كيخوت الرجل الكثير الأحلام والكلام ؛ ففي قصة «الأرملة المرحة» التي تختار شاباً لم يدخل في الكهنوت ليكون صديقها بالرغم من نصح رئيسه له ، نراها تقول - وليس في قولها ما يدل على عداوة لرجال الدين - : « كل ما أطلب أن يعرف من الفلسفة مقدار ما يعرفه أرسطو إن لم يكن أكثر » . ولقد تشرب سرفانتز عناصر الأساطير الشعبية مما يجعل لأسلوبه البساطة التي تسحر القارئ أكثر من الصنعة الكلامية . وهو أكثر من أي كاتب آخر من كتاب عصره يكتب كما لو كان يتكلم ، وينطوى مبدؤه الأخلاقي على العفو والتسليم ؛ فمثلا نجد الزوج الغيور الكهل الذي خانته زوجته الشابة بالرغم من أنه أغلق بابها بثلاثة أقفال يتهم نفسه ويعفو عنها وتسوء حاله بقية حياته .

وكان سرفانتز ورعاً مستتيراً وهدراً . يذكر سرفانتز في الطبعة الأولى من كتابه أن دون كيخوت مزق طرف قميصه وجعل منه سبحة بأن عقده عدة عقداً ليشيد بذكر العذراء مليون مرة . وفي الطبعة الثانية التي صدرت سنة ١٦٠٥ حور هذا الحادث فجعل سبحته أحسن حالا ، بأن جمع الحبوب وضماها في سبحة ، على حين اخفت العبارة الخاصة بالعذراء من الكتاب . ويمكن أن يقال إنه لو لم تتأثر أسبانيا بارازم الذي نرى فيه مزيجاً من الحماسة والسخرية لما أخرجت لنا كتاباً مثل «دون كيخوت» .

ويقول بول هازار الفرنسي أيضاً في رسالته المسماة «دون كيخوت» : إننا قد نجد في هذا القرن العشرين وهو عصر السرعة مواضع من دون كيخوت مملّة بعض الشيء ، ونجد تكرار المغامرات سهلاً ويسيراً ، ولكن لا بد أن نعجب بما في القصة من حياة مستمرة . ويقول فرنسيس جام : « إنني لأضع أشودة رولان في مرتبة أعلى من دون كيخوت » . ولقد نقل دستويفسكي في قصته «المعتوه»

صورة البطل الأسباني إلى الحياة المعاصرة . فالأمير ميشكين على ما به من نقص جسدى ومرض وصرع يظل طيب الضمير عنيداً في طبيته ، فهو لا يعرف السخرية ولا الكبر ولا الأنانية ، وهو يقطع الحياة محتفظاً بصفاة نفسه التي تشبه نفوس الأطفال ؛ ولقد وجدت روسيا في بعض نواح من « دون كيخوت » شيئاً من نفسها ؛ لذلك تبنته في رفق .

ومن خير ما قيل عن سرفانتز ما كتبه الأستاذ أنتوستل أستاذ الآداب الأسبانية في أكسفورد في كتابه عنه ؛ فهو يقول : إن كتاب « دون كيخوت » لا يختلف عن كتاب أورلندو الساخط لاريوستو إلا في أنه كتب نثراً ؛ وفيه نفس العطف المشرب بالسخرية على مثل أعلى يستحيل تحقيقه ، وفيه نهر طاع من الآراء المتدعة . على أن إريوستو اعتمد على ما في خياله من جدة وجمال في حين عالج سرفانتز مسألة هامة هي مسألة الحقيقة ؛ فقد صور أغراضاً وأعمالاً رفيعة ترتطم بعالم الخيلة والسوء ، فكشف عن الصفتين السائدتين في عصره ، حيث نجد الحديد الصدى تحت قبة الفرسان . فعقله وعقل بطله يخلقان نحو الكمال الذي يبدو سهل التحقيق في ضوء العقل والطبيعة ، ولكن بطله يصطدم بحقائق لا يمكن ردها ، وهو نفسه بدلا من أن يجد عوناً من الخزانة العامة (كما ظن الفرنسيون) . وجد نفسه ، وقد بلغ الثامنة والستين ، رجلاً « كهلاً كان جندياً وسيداً عاش فقيراً » .

فهذا المعنى المزدوج الذى يرفع « دون كيخوت » فوق جميع مؤلفات العصر ماعدا « هاملت » ، جعل النقاد الأسبانيين يلحقونه ، بالمظهرين اللذين سيطرا على العصر الذهبى في أسبانيا ، وهما التفاؤل والرفعة بتأثير إرازم وإنسانيته ، وذلك الانغماس المخادع في حركة مقاومة الاصلاح الدينى ، ومن تشبيهات أمريكو كاسترو التي تنطبق على هذه النظرة التي لحمتها قيام وجهين مزدوجين للحقيقة طست الحلاق الذى ظنه دون كيخوت غطاء الرأس للفارس ؛ وهو مثال حسن وإن كان مبالغاً فيه . على أن كتاب « دون كيخوت » سيظل قصة من نسج الخيال ليس لها غرض ظاهر إلا القضاء على نوع من الأدب كان سائداً قبل عصره ، فهو إذا كان صورة من عصره فليس عظة لذلك العصر . أجل ! إن سرفانتز الشاب تأثر بتعاليم إرازم ، وكان متفائلاً بعقيدته ؛ فقد كتب حتى في وصيته الأخيرة يقول : إن هناك كتباً بديعة كان لا يزال على استعداد لتكتملها ،

ولكنه ظل مديناً طول حياته . وإذا كانت الرجعية الدينية وما أصاب بلاده من خسائر قد حدثت من أماله ، فقد قابل الكوارث بشجاعة أصيلة فيه ؛ ولم يكن معلمه الحقيقي هو تغلب الرجعية الدينية أو خسارة الأسطول الأسباني ، وإنما الذى علمه هو الأيام واضطراب حياته . يقول انتوستل : لم يأت كاتب يهتم بالايضاح مثل سرفانتز ؛ فهو دقيق فى شرح القواعد لكل شئ حتى طريقة الوقوع فى الحب . وكان الكثيرون من أكبر الكتاب بين المعلمين ولكن القليل منهم عالج موضوعات كثيرة مثل سرفانتز الذى كان يعتقد فى تعقل الطبيعة وتعليم الخير ؛ فكان فيه الفيلسوف الاجتماعى والأخلاقى وإن لم يكن له تدريره وتعليمه .

وقال الأستاذ كير أستاذ الشعر فى جامعة أكسفورد مقارناً بين فيلدنج الكاتب الانجليزى وسرفانتز : إن الأول كان له الثانى من قبل مرشداً ، وعندما رأى فيلدنج أن مؤلفاته تنمو تحت يده إلى شئ أكثر مما كان يظن عرف مصدر هذا . وكان ينوه بفضل سرفانتز عليه ، أما سرفانتز فلم يكن يتصل بأحد من قبل حين خرجت مؤلفاته من أصول عقله ، حمله نبوغه إلى أبعد من غرضه الأول وهو التشهير بقصص الفروسية ، ولكنه لم يستطع التخلص من ثقل القواعد الأدبية فى عصره والأساطير الغرامية وغيرها . ويقول كير إن سرفانتز من كتاب الفكاهة ؛ لذلك يستطيع أن يفكر فى أكثر من موضوع فى وقت واحد ؛ والكثيرون من ناقديه ليست لديهم هذه المقدرة ؛ لذلك هم يتبعون خطأ واحداً من تفكيره على حين يرمى الكاتب إلى عدة أغراض فى وقت واحد . ولقد رأى هيجل هذا فى سرفانتز فتبين له أن الفروسية التى كان الكاتب يسخر منها ويهزأ بها فى شخص دون كيهوت هى فى الحقيقة ضفة من صفاته الثابتة ، وأن القصة التى تنطوى على المبالغات التى كان فى الظاهر يطاردها من العالم إنما خرجت إلى هذا العالم فى ثوب جديد . ونجد مثل هذا التناقض مع التناسق فى قصة من خير القصص التى أخرجت بعد « دون كيهوت » ، وهى قصة « كنييسة نورثانجر » للكاتبة الانجليزية مس أوستن ، وهى أضيق أفقاً من الكتاب الاسباني وأقرب بلوغاً إلى الكمال ؛ فان دون كيهوت ، على قول كير ، مؤلف عظيم غير معتنى به ؛ لأنه ملئ بالمغامرات وفيه من تنوع الأساليب والأغراض الأدبية ما يجعله فوضى .

و نحن الذين نعيش اليوم — وإن كنا أقل حياة من بطل سرفانتز الخالدين —
 نلخص حياته في القول بأنه رجل سمح ودود يعرض للأجوال الاجتماعية
 دون أن يوجه القدر إليها . وكان يشعر كل الشعور بالماضي ، ولكنه يعيش
 في الحاضر وسيعيش إلى الأبد . وقد يحسن الاختتام بعارة دون كيوخوت في وداعه :
 « ليست هنالك عصفير في هذه السنة في عش الطيور الذي بنى في العام
 الماضي . »

هنرى برلين

نقلها عن الانجليزية ز. ي. ع.